مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني شباط سنة ١٩٤١ صفر سنة ١٣٦٠

سخيف عاداتنا (*)

تتبدل العادات بتبدل الدول والمدنيات ، وتفعل في تلوينها كثرة المهاجرات والرحلات ، ويندر ان تتفق عادات بلد مع بلد أو اقليم مع اقليم . ومن العادات في ديارنا ما هو جميل لا ضرر فيه ، ومنها ما هو قبيح يحمل أضراراً . وكلامنا هنا على هذا النوع الأخير الذي يتأذى منه أرباب الذوق وعشاق النظام . وبغير التعليم لا سبيل الى نبذ العادات السخيفة ، فبالتعليم تتحد المنازع ، وتقل الفوارق ، ويشيع بين المواطنين كل حسن نافع .

من عاداتنا في اللقاء أن يباغت الرجل صاحبه في بيته أو في محل عمله في الوقت الذي يناسب الزائر وقد لا يناسب المزور . ومن النادر ان يستأذن الطارق ، كأن يقرع الباب بلطف ، ويقف ريثما يسمح له بالدخول ، وقد نسيت عادة الاستئذان ، وكانت مستحكمة عند أجدادنا في القرون الماضية ، فعدنا نقتبسها اليوم من الافرنج . ومن المؤسف ألاّ تكون لنا اوقات معينة للزيارات ، ولقاء الاخوان والمعارف ، وان نترك مثل هذه الأمور الجوهرية فوضى ، وقد جعل بعض السيدات في المدن يوماً خاصاً لاستقبال صويحباتهن وذوي قرباهن ، فتقدمن في هذه المأثرة رجالهن .

كان الرجل اذا دخل مجلساً يوسعون له فقط ، فيسلم ويسلمون على عادة العرب في الجزيرة الى اليوم ، وكان يندر القيام للزائر الا اذا كان لعظيم مجمع على عظمته ،

(*) محاضرة الأستاذ محمد كردعلي في راديو الشرق (بيروت) مساء يوم ١ شباط ١٩٤١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقومون له مرة واحدة ، وألفوا لعهدنا ان ينتصبوا قائمين لمن كان ذا حرمة في ذاته كلما دخل المجلس وخرج منه ، ولو تكرر ذلك عشر مرات ، يزعمون انهم يكرمون صاحبهم بذلك ، وقد يكون الرجل في بيته ، وجماعته يحاولون اكرامه ، واجلاسه في المكان الذي يتخيلون انه رفيع ، وما أرى وجهاً لإكرام الرجل في داره ، وواجبه هو ان يحتفي بضيوفه وزواره .

واذا دخل المجلس صاحب شأن في الدولة فالحفاوة به تزيد على الحفاوة بغيره ، وكلما كان الداخل رب جاه وغنى ، او ممن يخشى شره وان كان لا يرجى خيره ، يزيد الاحتفال به والاقبال عليه ، فيهبُّ كل من فيه هبة رجل واحد ، ويأخذون بيده ليجلسوه في المكان الممتاز بينهم ، او الذي يتوهمون انه ممتاز ، وقد تكون المقاعد كلها متشاكلة ، لا فرق بين ما كان منها عند الباب ، وما جعل في صدر المجلس ، فيقف الحضور على الأقدام دقائق حتى تتم هذه العملية ، وتسمع خلال ذلك الايمان والحلف بالمولى وبغيره ، ويفعلون مثل ذلك اذا انتووا الدخول الى مجلس او الخروج منه ، فاذا اجتمعوا يتعب أهل المجلس حتى يرضى الداخل ان يتخذ مقعده الذي يجري الاتفاق على ان يخصوا به زائرهم وجليسهم ، ويقتنعون بأنهم قاموا باجلال صاحبهم ، وفي الغالب انه لا يتم ذلك كله حتى يشدوا الداخل من يده أو يدفعوه في صدره ، اذا أبى مطاوعتهم على ما يخصونه به من الاكرام .

ولطالما ابتعدت عن الوقوع في حكم هذه العادات القبيحة التي تؤذي القادم على المجلس ، وتعطل وقته وأوقات من اجتمع فيه ، وقد لا انجو من هذا التكريم الذي لا معنى له الا بعد اسماع من يحاول شدي كلاماً قاسياً أدفعه به عني ، فأجلس حيث ينتهي بي المجلس ، على ما اهوى لا على ما يهوون ، لا استجيز اخذ مقعد أحد بعده المسكين مكاناً مشرفاً له ، ولا اختار موضعاً يأتي بعد لحظة شخص أكبر مني ، أو شيخ معمم متزمت أو احد من في قبضتهم الرواتب والمناصب من الحكام ، فاضطر الى أن اتنازل عنه مرغماً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانت لطبقة الاعيان في مجالسهم عادة من أقبح ما يسجل من انواع العادات، سرت اليهم من الترك العثمانيين غالبًا، وذلك ان تبدأ عمليةٌ أخرى، بعد العملية المتقدمة التي كان فيها الدفع والجر والحلف، لا تقل عن عملية اجلاسه غرابة، وهي انهم اذا جلسوا يسودهم السكوت بضع ثوان، وناظورة المجلس، ومن كان في طبقته ومقامه يتغامزون، ويسترحم الواحد من صاحبه ان يبدأهم بالسلام. فيصرف المتشاكلان في السن وقتًا حتى يتم السلام، وينال الكبير في نظرهم هذا التشريف، ويفض هذا الاشكال. وبعد ذلك يحق لأهل المجلس أن يسلم بعضهم على بعض. وكادت هذه العادة تبطل وهي من أسخف ما ألف المتنطعون.

وتجيء بعد ذلك مشكلة أخرى وهي تقديم القهوة للحاضرين، وفيها ما يعبث أيضًا بآداب المعاشرة، ويضيع على الحضور وقتهم. فيأتي من يقدّر الخادم او الخادمة انه كبير المجلس، ويخصه اول الحاضرين بالفنجان الأول، فلا يرضى اخذه فينشأ المناول يتنقل بما يحمل من ضيف الى ضيف، فيأبى كل من يقدم اليه ... فنجانه، ويشير بأن يخص بهذا الشرف من هو اكبر منه، وتبدأ الأيمان والرجاآت وقد يقوم بعضهم من مكانه ويحمل فناجًا الى آخر يراه لائقًا بالاكرام، وعندئذ يستقر الرأي على أن يتناول المقدمون أقداحهم ويتمتع الباقون بأخذها، وذلك بعد أن ينفد الصبر وتبرد القهوة والشاي وغيرهما. وفي الغرب يتناول المرء ما يعرض عليه، وقد يؤثرون السيدات بالتقديم ثم يأخذ الرجال بدون تفريق بين كبير وصغير، ويرجع ذلك الى تقدير الساقي؛ وقد اقتبسنا عن شيوخنا عادة البداءة بالميامن، فيقدم الساقي القهوة او غيرها آخذاً من اليمين اي يمينه، ولو كان المتناول الاول وليداً او وضيعًا بالقياس الى من في صدر المجلس، وهي عادة مستحسنة توفر على الناس أوقاتهم وحلفم وسخافاتهم ومشكلاتهم.

ومن منكر عاداتهم اذا اجتمعوا ان يخلطوا بين الأحاديث، وقد يهمس الجار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجاره ويخرجان عن ادب الجماعة ، هذا اذا لم يتكلموا كلهم معاً بحيث يضيع النظام ، كما كانت تختلط اصوات النسوان في الحمام .

ومن أبشع ما ألفوا من العادات عادة لم يطبقونها في الشارع ، وذلك أن احدهم اذا لقي أحد معارفه ، وقد يكون هذا مع صاحب له أو أكثر ، ووقته يحفره للاسراع ، فيستوقفه ويسأله أسئلة عرضت لخاطره في تلك الساعة ، ورفاقه ينتظرون الفرج لحلّ عقاله ليحلّ عقالهم معه ، وقد يكونون مثله ضيقاً وقتهم ، ويحاولون الوصول الى عملهم مسرعين . وربما كان ايقافه هذا لسؤاله عن الحوادث التي تنشرها الجرائد كل يوم ، او لأخذ رأيه في مسألة سياسية تشغل بال الناس ، ويحتاج الجواب عليها الى بضع دقائق أو اكثر ، او للتوسط لمبطال او للسؤال عن عاطل الى غير ذلك من التافهات . وكثيراً ما كان يستوقفني بعضهم فأمتنع من الوقوف ، وهم يقسمون عليّ بكل مغلظة من الأيمان أن أجيبهم الى سؤالهم في دقيقة واحدة فلا اجيب ولا أقف ، وجوابي وأنا مسرع الخطى ، ان الكلام في الموضوع لا يتأتى في الشارع وان مثل هذه المسائل يبحث بها في خلوة ، وفي وقت فراغ .

كنت في وزارتي الأولى خارجاً من داري صباحاً قاصداً مكتبي على قدميّ . وكان الشارع مكتظاً بالخلق ، والطريق يجري تعبيده ، والمعبدة [1] ذاهبة جائية ، وقضبان الحديد الطويلة محمولة على العجلات ، وعربات النقل تحمل الاحجار والاسمنت والجص ، والفلاحون آتون بحاصلاتهم الى الاسواق على بهائمهم ، ومركبات الترام واقفة لا تستطيع ان تتقدم ولا أن تتأخر . في هذه الحال من الازدحام المخطر اقترب مني أحد معارفي من متقاعدي ضباط الجيش العثماني ، وسألني حلّ قضية لأحد اقاربه ، فقلت له : تعال الي مكتبي نبحث في المسألة . فقال : أود أن تعطيني رأيك الأخير وتعاهدني على ان تسير بما يلتئم مع مصلحة نسيبي . فأجبته ان المسألة تحتاج الى ان ارجع الى اضبارة القضية ، وأظنني قلت ومراجعة القانون ، فقال : أنا اطلب منك ذلك لأملي فيك ، فقلت الآن يتعذر

(١) بالتشديد : آلة التعبيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذلك ، فأنت ترى أننا في خطر من هذا الزحام ، والفكر مصروف الى التوقي من الصدمات . فتأفف من كلامي ، وعندها قلت له متألماً من قلة ذوقه وتقديره للحال : أنت تخرجت من مدرسة نظامية ، وتوليت أموراً ادارية في الجيش فيما أحسب ، وتعرف اكثر من غيرك معنى الرجوع الى المعاملة الجارية ، فما هذا التحكم ؟

ويكثر مثل هذا المعجز ، وكانوا يلتمسون مني في الطريق أن اقضي لهم أشغالهم كما قد يطلبون الى الطبيب أن يعطيهم تذكرة يضعها لمداواتهم ، ويقرظونني ويقولون إن مسألتهم مهما كانت صعبة فبيدي حلها ، أو ما أشبه ذلك من عبارات الاغراء . كأن الوزير جاء ليعمل لأرباب المصالح بدون التقيد بالقوانين ، وليرضي كل انسان بما يحب بالحق والباطل . ولذلك اضطررت في الوزارة الثانية الى استصحاب شرطي ، وبخاصة اذا كنت وحدي سائراً على قدمي ، والعوام قد يرهبون الشرطي اكثر من الوزير ، لأن الشرطي يدفع عن مخدومه من يقع في نفسه دفعه ، وينحيه عنه بلطف أو بالعنف واذا اقتضى الحال يلطمه ويكتب فيه محضراً او ضبطاً ، أما الوزير المسكين فلا يستطيع عمل شيء من هذا ، وغاية ما يتطلب من حلم المراجعين ان يشخصوا اليه في مكتبه ، ومكتبه مفتح الباب لهم ساعات طويلة من النهار ، وهو وديوانه مستعدان لحل المشاكل ، وقد تقدم لهم القهوة والشاي والمرطبات ولفائف التبغ ويلاطفون ويؤانسون .

ووقاك الله من سخافات القوم في دعواتهم ، وفيها تتجلى درجاتهم في المدنية ، وتقرأ نفسياتهم الغريبة . فقد يدعو الرجل أحباباً او معارف له من مختلف الطبقات لا رابطة تربطهم ، ولا سبق لهم ان تعارفوا ، ويتفق ان يكون في المدعوين بعض المتعادين المتخاصمين او المتنافسين المتباغضين ، فتحصل سكتة في الجلسة ، ويقطب بعضهم وتهيج أعصاب آخرين ، ولا يهنأهم الطعام والشراب ، ولا يطيب سمرهم وحديثهم وقد يقذف بعضهم بعضاً بتعريض مؤلم ، ويسمعه الفاظاً جارحة ، فيتألم المقذوف ، وتنقبض صدور من لا غرض لهم من المدعوين لسماع أشياء هم في غنىً عن سماعها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مثل ذاك الوقت ، وهو وقت سرور وراحة ، وصاحب البيت يحار في ارضاء ضيوفه ، ويحاول التوفيق بين المتعادين .

وفي العادة ان يأتي المدعوون بعد الميعاد الذي ضربه لهم صاحب الدعوة ، وكثيراً ما يتخلف بعضهم الساعة والساعتين عن الوقت المقرر ، وصاحب المأدبة لا تسمح نفسه ان يقدم طعامه لمن اجتمع فيشتد بهم الجوع ، ولا يدرك الداعي انه باكراه من حضر على انتظار من تخلف يحتقر من لبى الطلب في الوقت المعين ويضيع عليهم اوقاتهم ، وقد تكون لهم مواعيد أخرى ، ولا يأذن باطعام مدعوويه الا اذا تم الحشد كله وربما حدثته نفسه أن يرسل ولده او خادمه يسأل عن المتخلف ويستحثه ، وفي الغالب ان المتخلف لا يعتذر شفاهاً ولا كتابة ، وعلى هذا يستلزم تناول وجبة من الطعام ان يصرف المدعوون بضع ساعات .

ومن المستحيل ضبط المواعيد بين كل الطبقات في هذا الشرق القريب ، لأن القوم ما عرفوا التوقيت ، وربما كان ضبط المواعيد مما يستغربونه ، وكلما تقدموا اشواطاً في مضمار الحضارة يحسنون المحافظة عَلَى أوقاتهم وأوقات غيرهم . ومسألة المواعيد من المسائل التي شغلت جانباً من وقتي ، وكنت آلم من الاخلال بها ، وقد تغلبت عليها ، وغرستها في صدور بعض الناشئة بصعوبات كثيرة ، ومن المتعذر التنظيم وسط الفوضى . وقد لقنت من أحاطوا بي ورأستهم ، وان شق عليهم عملي باديء بدء ، ان يراعوا المواعيد ابداً لما في فوضى الاوقات من الضرر لهم ولغيرهم ، حتى لا يثبتوا بالاخلال بالأوقات انهم شعب منحط .

وتراهم الى اليوم متى اجتمع المدعوون على اخوان يشد بعضهم بعضاً ، فيجلسون من يحاولون اجلاسه في مقام التكرمة ، ثم يجلسون الأمثل فالأمثل بحسب نظرهم او عرفهم . وعاداتهم في تناول الطعام قد دخلها تحسين كثير ، فتراهم لعهدنا كالغربيين يجعلون أمامهم اطباقاً لكل شخص ، ومعها كأسه ومنديله ، وسكينه وملعقته وأدوات أكله ، يتناول كل انسان الكمية التي يبغيها ، يضعها في طبقه من الصحن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكبير الذي يقدمه الخادم او غيره ، او يكون على متن المائدة مع سائر الصحون والاطباق ، وكان المدعوون كلهم قبل ... سنة يتناولون المرق والحساء وجميع السوائل من اناء واحد على نحو ما كانوا يتناولون المائعات ويشربون من اناء واحد ، وكان والدي وانا طفل يخص كل انسان من أسرته او ممن يدعوهم باناء يجعل لنا فيه حصتنا من المرق والحساء ، وبعض المدعوين يستغرب ذلك منه . وكانت سكاكينهم اصابعهم ، وملاعقهم حفناتهم ، والملاعق اذا وجدت فتكون من الخشب غالباً ، ولا يزال لها اثر في بيوت الفلاحين المعدمين ، واذا طعموا او شربوا سمعت لهم قرقرة على صورة مستنكرة تدل على جشع ونهم وسوء أدب وتهذيب

ومن عاداتهم اذا تناول احدهم كأس ماء أن يبادره الحضور كلهم بقولهم (هنيئاً) فاذا شرب على المائدة ثلاث مرات وكان مواكلوه عشرة أشخاص فقط يضطر الى أن يجيب كل واحد بمفرده (الله يهنيك)

ومن عادات الغرب الجيدة التي سرت الينا التأني في تناول الطعام واجادة المضغ والبلع ، وقلما يسمع من احدهم صوت ماضغيه عند التهام اللقمات او عند تناول الماء او الشراب او الحساء او المرق . ومعيب ان ينفخ احد على الشاي او اللبن الساخن او القهوة او غيرها حتى تبرد ، وعليه ألاَّ يتناول أشياء من الطبق العام الا بملعقة خاصة بالطبق نفسه ، ويدخر ملعقته وشوكته لطبقه الخاص ، فيأخذ ما يأخذ جرعة جرعة بدون ان يسمع صوت لما يكرع ويَشرَق ، ولا يمد يده زيادة عن اللزوم ولا يقف على قدميه لتناول ما بعد عنه من الاطباق والابازير والمشهيات والخبز والماء وغير ذلك مما يجعل على الخوان عادة ، وله أن يطلب ذلك بأدب وصوت خافت الى مجاوره ومواكله القريب وهذا يرى من واجبه ان يخدمه في ذلك ولو كان كبير المنزلة ، واذا تعديت حدود مقعدك فحاولت تناول شيء بعيد عنك يعد عملك احتقاراً له .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن ابشع ما يأتيه بعضهم التجشوء بصوت عال ، والتنخع بما يسمع صداه ، وان يعيد المتنخع طيَّ المنديل الذين القى فيه نخامته ؛ اما البصاق على الارض والتمخط باليد كيف اتفق ، وادخال الأنامل في الأنف لاخراج النخامات او ادخال اليد في الاذن لاستخراج اوساخها فمن أبشع العادات وأضرها ، فعلى ادارة الصحة منعها ومعاقبة من يأتيها من العامة . وعلى المجالس البلدية أن تعاقب في المدن والقرى كل من يخرج الى السوق بمنامته (بيجامته) فثوب النوم لا يجوز أن يظهر به في الشارع إنسان يحترم نفسه .

ومما يستنكر أن يضع الجالس يديه على المائدة ويضغط عليها بكليته وان يؤذي جاره برجليه وبديه . ويستنكرون تشديد الداعي على احد مدعوويه لتناول لون لا تميل اليه نفسه ، والزيادة من لون تخطاه وما استطابه ، واكراهه على أخذ قطعة من الحلوى يعتقد ان معدته لا تحتملها وتضطره من الغد الى مراجعة الطبيب . وكم تحلف أيمان وطلاقات في مثل هذه الاحوال حتى ينزل المدعو على ارادة الراغب ويتناول بالاكراه ما يجب له صاحب المائدة .

ومن عاداتهم في المآتم وخصوصاً في دمشق أن يجري العزاء ثلاث ليال على الميت ، فيأتي الى داره أصحابه ومعارفه ويستقبلهم اولاده واخوته وأبناء عمه وأهله ، ولا يجري حديث سوى السلام ثم تناول القهوة واللفائف ، على حين أن آل الفقيد هم في حاجة ماسة الى من يسليهم ، ويحول مجاري أفكارهم ، ويهون عليهم مصابهم ، والرجال في هذا الباب كالنساء ، الا أن النساء لا يتناولن القهوة ولا اللفائف في وسط الجمع ، وهذا من أسخف ما يدون أيضاً كأن المعزين يقولون بلسان الحال : ها قد جئناكم وعزيناكم . هذا ولو جلسوا دقيقة واحدة ، والغالب أن الجلوس لا يتجاوز مقداره دقائق قليلة ، واذا كان المعزَّى به جليل القدر بين قومه ، فالمعزون به كثيرون ، والمكان مهما اتسع لا يستوعب القادمين في ساعة واحدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا وصف قليل من عاداتنا وهو موضوع جدير بأن تكتب فيه الكتب والرسائل وتوضع في بيانه الخطب والمحاضرات ، ومن حسن الحظ أن عادات الافرنج التي تعبوا أحقاباً في اصلاحها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الكمال في الجملة أخذت تسري الينا من حيث لا نشعر ، وتدخل علينا من طرق مختلفة ، من طريق الاختلاط بالغربيين او بالرحلة والسياحة او بالهجرة ، او من طريق التعليم في المدارس ومن الاختلاف الى الفنادق والمطاعم التي ينزلها الاجانب ، وقد تسوغنا بعضها وتمثلنا بعضها ، لما حوت من اليسر والنفع . فمن عاداتهم الحسنة التأنق في تناول الطعام على الموائد ، وايراد أجمل الاحاديث عليها ، والتلطف بكل ما يؤكل بأداة ليسلم من مسّ الايدي ما أمكن ، هكذا يتناولون الابازير والتوابل والسكر والحلويات ، ويحتاط المتآكلون فلا يأتي أحدهم ما يؤذي جليسه وعلى العكس يخدمه ويتعهده ولا يرتكب ما يخالف به قواعد الصحة وآيين الذوق السليم .

لا جرم أن تأصيل هذه العادات يحتاج باديء بدء الى تعب حتى تتعلمها البيوت اولاً وينشأ عليها البنون والبنات ، وهي تتوقف على معدات وأدوات ، وعلى عقل يدبرها وتربية تتمثلها . ولا يحصل الهناء في العيش بغير ترتيب ونظام . ومهما صعب الأخذ بهذه المذاهب فهي محمودة العاقبة لمن يمارسها ، محببة الى نفس كل عاقل تسمو نفسه الى الكمال ، وترغب في مراعاة قواعد الصحة والذوق لتتم له شروط الرفاهية والنعيم . ومن دواعي الاغتباط ان رأينا هذه العادات تسري في القرى التي كثر فيها العائدون من المهجر او الذين ألفوا الاختلاط بالعناصر الغربية كأهل الساحل وسكان الحواضر الكبرى . وقد شهدتها في بيوت ما كنت أظنهم اقتبسوها . في امثال الافرنج : قل لي من تعاشر أقل لك من أنت . ثم قاسوا عليه معنى آخر فقالوا : قل لي ما تأكل أقل لك من أنت ، ونحن نقول أرني كيف تعاشر أقل لك من أنت .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net